« نقد الفكر الديني »

بقلم عبد الجليل حسن

قبل ان تطل السبعينات مباشرة قامت ضجة عنيفة في بيروت، صحافتها ونواديها الثقافية ، حول كتاب ، وما زالت هذه الضجة مستمرة . ومن هنا فلا يمكن الحديث عن هذا الكتاب دون الحديث عن رد الفعل الواسع الذي احدثه او اريد له ان يحدثه من الحقيقة، خاصة وان الكتب التي احدثت مثل هذا الدوي في تاريخنا العربي الحديث كتب قليلة . وقد ازدادت الاثارة بعد الضجة التي اثيرت حول الكتاب عندما صادرت السلطات اللبنانية الكتاب واصدرت امرا بابعاد مؤلفه السوري الاصل من بيروت « بتهمة اثارة النعرات الطائفية » .

والكتاب هو « نقد الفكر الديني » لمؤلفه الدكتور صادق جلال العظم ، وقد صدر عن دار الطليعة في بيروت . وفور طبع الكتاب، وربما قبل تداوله في الاسواق ،قدمت جريدة « النهار » في ملحقها الاسبوعي الصادر في ٧ ديسمبر ـ كانون اول١٩٦٩ الكتاب ومؤلفه بشكل مثير ، وسلطت عليه الاضواء مع التركيز على نقاط استفزاز معينة وابرازها . وجعلت عنوانا عريضا للموضوع « الدمشقي الكافر ـ خارج على عائلته المسلمة الاريستوقراطية وواحد من العصاة الشياطين الحقيقيين ـ صادق العظم : مسلم النصف الثاني من القرن العشرين، أمن الحتم عليه الاعتقاد بالجن والملائكة وهاروت وياجوج ومأجوج ؟ » .

وهكذا قدمت « النهار » الكتاب ومؤلفه على انه هجوم من مفكر « ماركسي » على الدين الاسلامي .

و« النهار » كما يعرف القراء العرب ، ولا شك ، جريدة موضع ريب أكيد من حيث الجهات « الاجنبية الغربية » ، التي تمولها ، وعداؤها للجمهورية العربية المتحدة ومواقفها من قضايا الثورة العربية معروفة ومكشوفة ، بالرغم مما تتمتع به ـ حقيقة ـ من ذكاء شديد وفن صحفي مثير جعلها اوسع الصحف اليومية البيروتية توزيعا .

وهنا كانت مبادرة هذه الجريدة للتهليل للكتاب محل شك وتساؤل المعلقين في الصحف البيروتية بل ومحل الادانة . وقد ركزت على هذه النقطة مثلا مجلة الآداب (عدد يناير ١٩٧٠) ومجلة « الحوادث » (راجع امين الاعور في العدد ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩ والعدد ٩ يناير ١٩٧٠) وقيل ، ان الخطر من نشر الكتاب لم يكن هو لبس المسألة . بل الخطر من شن المعركة في الصحيفة (النهار) هو اللب والجوهر » .وهنا افلحت « النهار » بذكاء شديد في اثارة معركة ، تبدو أنها جدل حول افكار الكتاب ولكنها جرت حتما هجوما على الماركسية وبالتالي الهجوم على الاتحاد السوفياتي .. فرأينا عناوين ضخمة في الصحافة البيروتية مثل انها « حرية الكفر وليست حرية الفكر » و« عوض ان يحرر الشيوعيون الشعور الديني عند المسلم فليحرروا الشعور الماركسي المسحوق تحت عبء المعتقدات المتحجرة » (صوت العروبة عدد ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩) وارسلت البرقيات الى الصحف تطالب باتخاذ كافة الاجراءات للوقوف امام موجة الالحاد ، وطالبت بعض الصحف بسن قانون يمنع نشر الالحاد وذهب بعضها الى حد تحديد العقوبة « سجن الكاتب خمس سنوات في المرة الاولى ، وعشر سنوات اذا كرر الامر مرة ثانية ، وخمس عشرة سنة اذا عاود ثالثة ... واي متكلم يدعو للالحاد في مدرسة او جامعة يطرد من جامعته او مدرسته ويحال الى المحاكمة لمعاقبته » !! (صوت العروبة ـ ٣١ ديسمبر ١٩٦٩) . وهكذا فتح في عصرنا باب كريه من ابواب العصور الوسطى .

ودافع الكثيرون عن حرية الرأي وحرية الفكر والحاجة الى المناقشة والمواجهة الفكرية وليس الارهاب ، واصدرت بعض الهيئات البيانات التي تستنكر مصادرة الكتاب وقرار ابعاد مؤلفه.وقالت الآداب مثلا ان محاولة مصادرة الكتاب « دليل على ان هذه الديمقراطية التي يتبجح بها لبنان هي ديمقراطية زائفة ودعوى باطلة » . وقيل كلام كثير عن المخطط الالحادي للنيل من الاسلام ،وان الاستعمار وراء هذه الحملة . وقال كثير من المعلقين المتزنين « ان فتح اية معركة تضر بصالح المعركة ضد العدو ، بتعريضها مثلا وحدة الفكر الشعبي للتفسخ ، ليست الان معركة ثورية ، بل العكس . وليست معركة تقدمية بل العكس » . و« ان شن المعركة ، باسم الماركسية ،ضد الدين ، يشكل سلاحا خطيرا ضد فكرة الثورة والثورية ، في ايدي الذين يستثمرون الدين كجماعة الاخوان المسلمين ، وينسقون سياساتهم على حسب ما تريده السياسة الاميركية في هذه المنطقة » (راجع الحوادث ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩) وتنبهت الآداب الى ان هذه « المعركة » باسم الثورية والتي تؤكد على الحركة الفدائية وحدها باعتبارها القوى الثورية الوحيدة في المنطقة محاولة « لشق » الحركة الثورية العربية وتفتيتها .

وقد يبدو ان الهدف البعيد من هذه المعركة التي اثارتها « النهار » ثم تبنتها ودافعت عنها هو الوقيعة بين العرب والاتحاد السوفياتي ، في وقت ابتدأت تنحسر الدعاية الطويلة الكثيفة المليئة بالخرافات والافتراءات التي حاكتها الرجعية العربية ضد « الاشتراكية العلمية » وضد الاتحاد السوفيتي بالذات صديق العرب الوفي ، ابتدأت هذه الدعاية تنحسر ويتضح زيفها في اوساط الجماهير بفضل الموقف « العملي الصلب والمجيد الذي يقفه الاتحاد السوفياتي معنا ضد عدونا وفي معركتنا المصيرية . فأتت هذه المعركة لتستغل عواطف الجماهير الدينية لاثارة هذه الوقيعة .. الا ان الكثيرين من المعلقين تنبهوا الى خطر افتعال هذه المعركة الجانبية مع الماركسية ، واخذوا يشككون في المخطط الامبريالي وراء هذه المعركة المفتعلة ، ولاحظ بعضهم ان هؤلاء وصلوا حبال الود بينهم وبين الماركسية حديثا وبالتحديد بعد يونيه ١٩٦٧ ثم أخذوا بعد ذلك يشنون الحرب ضد الفكر الديني .. واثير كلام كثير حول صادق العظم نفسه وربط بين مواقفه في الهجوم والتهجم على العربية المتحدة وبين تبني « النهار » له وتحمسها لاثارة هذه المعركة وجعله بطلا شهيدا .

* * *

ولكن ... ان كل هذه التعليقات والضجة التي اثيرت حول الكتاب ، وما صاحبها من تأييد وهجوم محموم وشكوك واتهامات، ينبغي تنحيتها جانبا لانها تتصل برد الفعل السياسي والديني للكتاب وليس الكتاب نفسه ، او بالاحرى تتصل بالمعركة التي اثارتها«النهار» واستغلت فيها الكتاب وصاحب الكتاب كمبرر وستار . وفي مثل هذا المناخ ، مناخ الشكوك واثارة الريب ، ما اسهل توجيه الاتهامات ،ويضيع

التقييم الحقيقي للكتاب ولجهد مؤلفه . وهنا علينا ان ننظر الى الكتاب نفسه ومن داخله اولا وقبل كل شيء ، باعتباره جهد مفكر عربي يريد ان يكون مخلصا . وانه نقد أراد به صاحبه تبديد وهم وانه يسلك حقيقة وعن اقتناع أكيد سلوك واحد من اصحاب « القناعات الاشتراكية الثورية » فيكل ما كتبه في كتابه ، وانه اراد خدمة الحركة الثورية العربية ، وانه أراد ان يكون مفكرا ثوريا يتصدى للقيام بدوره المشروع والمطلوب في « النقد » .. علينا ان ننظر في الكتاب من هذه الزاوية وحدها وفي هذا الاطار (وان نستبعد علاقة المؤلف بالنهار او التقاء فكره في هذا الكتاب او غير هذا الكتاب مع أهداف النهار او غير النهار)، وان نناقشه بهدوء وفي ضوء ما انتواه مؤلفه وما قصد اليه ، وان نحاسبه بهذا المعيار وحده حتى يمكن تقييم عمله اولا وربطه بسياقه التاريخي والمرحلي. ثانيا .

* * *

والفكرةالتيينطلق منها المؤلف هيالدعوة التي دعا اليها الكثيرون ـ وقد اشار المؤلف الى بعضهم ـ وهي ضرورة نقد البنيان الفكري التقليدي للشعب العربي حتى لا يكون ذلك امرا معطلا للنمو الاقتصادي نقدا علميا صارما . ويزعم المؤلف انه برغم اعتراف الجميع بأهمية نقد البنى الفوقية في حياة المجتمع العربي (مثل الفكر والثقافة والتشريع والايديولوجية الغيبية الضمنية) الا ان هذا النقد انحصر في حدود التعميمات الواسعة وترديد بعض الكلشيهات المستهلكة حول التنديد « بالذهنية الغيبية الاتكالية » ،و« الايمان بالغيبيات والاساطير والحلول العجائبية » والدعوة الى الاخذ بالاسلوب العلمي والمنهج العقلاني في معالجة الامور وبناء الدولة العصرية ، ولم يقم احد من هؤلاء المنددين والمناشدين « بنقد الذهنية الغيبية التي يرفضها ، على أساس من المراجعة العقلانية العلمية المباشرة لنماذج حية وملموسة من انتاجها ومزاعمها وتفسيراتها للاحداث . وارجو الا اكون مجانبا للصواب كليا ان قلت بأنني حاولت في هذه الابحاث انامارس هذا النوع الملموس من النقد للفكر الديني المعروف حاليا والمعروض على اوساط الرأي العام العربي » (ص ٨) .

فالمؤلف اذن يريد ان يفعل ما لم يفعله التقدميون العرب الذين نكصوا عن مهمتهم نحو النقد العلمي لهذه البنى الفوقية ، ويتهم حركة التحرر العربي بأنها لم تقم بواجبها نحو التصدي الفكري لهذا السلاح النظري بيد « الرجعية العربية » وانها وقفت موقفا سلبيا محافظا من عملية نقد الارث الفكري والاجتماعي العربي ومراجعة ابنيته العليا بما يتناسب مع التغييرات المادية الكبيرة التي طرأت علىتركيب المجتمع التحتي (ص ١٠) بل انه يتهم حركة التحرر العربي بتبنيها البنيان الثقافي الفوقي بما فيه من عادات ذهنية متخلفة « واعتبرت كل ذلك جديرا بالاحترام والاجلال واحاطته بهالة من القدسية مما وضعه خارج نطاق النقد العلمي والتحليل التاريخي للظواهر » (ص ١٠) ويتابع اتهامه لحركة التحرر العربية بأنها لم تبذل جهدا فكريا وثقافيا موازيا للجهد الاقتصادي والاجتماعي كي تعجل في تحقيق التجانس بين الفكر والمصلحة التي يمثلها بل يقول انها تضع كافة العراقيل والموانع الممكنة في وجه حدوث اية تغيرات موازية في ضمير الانسان العربي ، وان جهدها الثقافي تحول الى صيانة الايديولوجية الغيبية بمؤسساتها المتخلفة وثقافتها النابعة من العصور الوسطى تحت ستار حماية تقاليد الشعب وقيمه وفنه ودينه واخلاقه ... ثم يقول ان حركة التحرر قامت بتجريد العلاقة الاستعمارية في حياة الوطن العربي بحيث بدا الاستعمار وكأنه الحقيقة الوحيدة المباشرة الماثلة في مجرى الاحداث في المنطقة والمحركة لها و « بالفتعملية التجريد هذه في تبسيطها للواقع التاريخي المعقد مما جعل الاستعمار (واحيانا الصهيونية العالمية) يبدو وكأنه القوة الوحيدة المتحكمة ، بصورة ، مباشرة وغير مباشرة ، بحركة المجتمع العربي وبالبيئة التي تثير ردود فعله » (ص ١٣) والوجه الآخر لعملية تجريد العلاقة الاستعمارية على هذا النحو هو التعصب للوهم المثالي القائل بأن الايديولوجية الغيبية وما يلتف حولها من قيم وعادات وتقاليد هي حصيلة للروح العربية الاصيلة الخالصة (ص ١٣) وقد قال ايضا بأن الايديولوجية الدينية هي السلاح النظري الاساسي والصريح بيد الرجعية العربية في حربها ومناوراتها ضد القوى الثورية وكذلك قال « ان الانظمة التقدمية العربية وجدت في الدين عكازا تتكيء عليه في تهدئة الجماهير العربية وفي تغطية العجز والفشل» ووجدت فيه « وسيلة ديماغوجية فعالة في تعزية الجماهير وتسكينها » الخ ... (ص ٩) .

* * *

هذه هي الافكار العامة التي اوردها الكاتب في مقدمة كتابه وحدد بها منطلقة ، وبذا جعل الكاتب من مقدمته هجوما على حركة التحرر العربي ... ونحب ان نحدد الاطار العام لنقده لحركة التحرر العربي وسياقه ، فليست المشكلة هي توجيه النقد لحركة التحرر والحركة الثورية فالنقد مطلوب دائما وهو علامة صحة وانما هي سياقه وهدف توجيهه وطريقة توجيهه وعن اي ارضية يصدر ... وسأستبعد مقدما الربط بين المؤلف والمجموعة التي رفعت شعار « اليسارية » فجأة وتتجمع حول مجلة « مواقف » او المجموعة التي تلتف حول مجلة « القضايا المعاصرة » الفصلية التي تصدر عن دار « النهار » ... او انجراف الكاتب في موجة النقد الماسوشي للذات الذي ساد بعد الهزيمة والذي ادى ويؤدي باصحابه الى النقد الشامل الصبياني والمتشنج غير المسؤول (للمؤلف كتاب « النقد الذاتي بعد الهزيمة » وقد صدر عام ١٩٦٨) . سنستبعد هذا كله ونجمل « نقده لحركة التحرر العربي في مقدمته لنقد الفكر الديني » ـ ولن يفوت على القارىء دلالة هذا التشديد على نقد حركة التحرر في مقدمته لموضوعه ـ نجمل هذا النقد في نقطتين :

اولا : يتهم حركة التحرر العربي بأنها تهمل نقد البنى الفوقية بوجه عام والبناء الديني بوجه خاص وان جهدها الثقافي تحول الى صيانة الايديولوجية الغيبية بمؤسساتها المتخلفة والتعصب لها باعتبارها حصيلة الروح العربية الاصيلة .

وهذا الحكم على هذا النحو حكم عام وغير صحيح اولا ، فهي لم تجعل ذلك « جهدها الثقافي » على الاطلاق ، اما استناده الى حديثه عن معجزة ظهور العذراء ، وهو حديث عصبي استخدم فيه تعبير الهستيريا الدينية والهوس الديني اكثر من خمس مرات في صفحة واحدة (ص ١٥٤) فلا يمكن ان يكون مستندا ودليلا الا اذا كنا نريد التشكيك والتهجم ونبتعد عن دراسة مثل هذه الامور دراسة اجتماعية ونفسية . والقضية الاهم هي ان المؤلف يسوى بين مواقف الدول العربية الرجعية والتقدمية في هذه الناحيه ، بين الذين يستخدمون الدين كستار لضرب التقدم في المنطقة العربية والذين يكشفون عن الجانب التقدمي فيه لمساعدة حركة التحرر العربية ، بين الذين يتخذون « الفكر الديني » ستارا لمعاداة الثورة والذين يكشفون عن الجوانب التي يمكن ان تلعب دورا في حركة التقدم في هذه المرحلة وفي محاربة الاستغلال مثل فكرة الغاء الملكية الخاصة في هذا الجانب من التراث.

وهذا الموقف الذي اتخذه المؤلف لا يمكن ان يخدم حركة التحرر في مرحلتها الراهنة وان الامر يتوقف على تشخيص الحالة الموضوعية والظروف التاريخية ، والذين يغفلون عن ذلك الفهم الاولي ويروحون يهومون وراء ما يحسبونه مواقف مبدئية مطلقة وحاسمة مصابونبمرض معروفشخصه لينين بدقة متناهية.وهذا المرض اسمه « مرضاليسارية الطفولي » ، والمصابون بهذا المرض يقوضون نفوذهم بين الجماهير ويساعدون دائما اعداء رسالتهم ويخونون مهمتهم التي تتطلبمنهم « ان يكونوا قادرين على اقناع الفئات المتأخرة ، قادرين على العمل بينها ، لا ان يضعوا بينهم وبينها سياجا من الشعارات الصبيانية اليسارية المخترعة » . (ص ٤٩ من مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية ـ مختارات لينين ج ٤ ـ الطبعة العربية) .

ـ التتمة ـ على الصفحة ـ ٨٩ ـ

نقـد الفكـر الديني

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

ويرتبط بهذه النقطة عدم تدبر الكاتب لما يقال عن الاصالة وخلطه بين الذين يستخدمون هذا المفهوم لصيانة العناصر المتخلفة في التراث وبين الذين يجهدون في توضيح هذا التشويه للتراث وابراز الجوانب التقدمية فيه ... وقد تناسى المؤلف ذلك كله وسوى بين الموقفين مما جعله يبدو كالذي ينقد حركة التحرر من خارجها ولم يتفهمها وجعله يقف موقف المشككين فيها وبالتالي جعل نفسه يقف مع اعدائها .

وكذلك يرتبط بهذه النقطة الموقف الخاطىء الذي وقفه في الكتاب كله عندما شدد على اثارة التناقض بين الدين والعلم الحديث باعتباره التناقض الرئيسي في هذه المرحلة . ففي مجتمع يناضل الاستعمار وفي حالة تحرر وطني ومحاولة للتخلص من الاستغلال الاجتماعي اذا كانت هناك محاولات لان يرتدي هذا الجانب من البنى الفوقية للتراث العربي ثوب « العقلانية » عن طريق التاويل غير المؤذي ثم يتقبل ذلك ، فليس من المفيد اذن بل وليس علميا ايضا ، التشديد على ان هناك تناقضا وان هذا وحده هو التناقض الرئيسي ، اي التناقض بين الدين والعلم . وانما التناقض الرئيسي في هذه الحالة انما هو التناقض في عناصر البناء الفوقي التي تستخدم لتبرير الاستغلال وبين العناصر التي تقف ضد الاستغلال . ومحاولة المفكر الذي يتصدى لنقد هذا البناء الفوقي من التراث انما تكون في بيان وكشف هذا التناقض ومهاجمة العناصر التي تبرر الاستغلال وان تخفت تحت أي ستار « مقدس » ... ولكن المؤلف لم يفعل شيئا من هذا على الاطلاق ـ في كل الكتاب ـ وانما راح يشدد على التناقض بين العلم والدين وينتقي أمورا ليست بذات شان في مسائل الحياة الواقعية والعملية بل انها تنقض باستمرار او تتناسى (والتناسي احيانا نوع من الرغبة في اللاوجود) عند السلوك العملي ومقتضياته وتتحول هذه الامور الى منطقة التفضيل الشخصي « ولا تتدخل في مواجهة الواقع الا بمعارضة ضعيفة واهنة » وهي فيما يرى البعض بالرغم من افتقارها او بسبب افتقارها الى الموضوعية تكون « عوامل رئيسية من عوامل الانسجام والتلاحم الاجتماعي » ... وهذا النقد العام لموقف الكاتب في هذه النقطة ينصب على معظم ما عمله المؤلف .

ثانيا : اتهم الكاتب حركة التحرر العربي بانها تقوم بعملية تجريد للاستعمار (وللصهيونية العالمية) بحيث جعلته يبدو كانه القوة الوحيدة المتحكمة بحركة المجتمع .

ولا شك ان هذا النقد يبدو صحيحا ومعقولا لاول وهلة ، وقد سبق للكاتب ان كرر فكرة مشابهة في « النقد الذاتي بعد الهزيمة » (ص ٣٨ ـ ٤١) ، والذي يجعل هذا الكلام يبدو معقولا ان المبالغة والتضخيم في جانب واحد واغفال الجوانب الاخرى قضية خاطئة وغير صحيحة بشكل عام ، وان التنصل من المسؤولية واسقاطها كلية على سبب واحد خارجي دفاعا عن انفسنا قضية خاطئة وغير صحيحة بشكل عام . ولكن ليس معنى هذا ان تأتي وتقول ـ في مرحلة التحرر الوطني والنضال ضد الاستعمار ـ ان حركة التحرر العربي تقوم بعملية « تجريد » للاستعمار والصهيونية العالمية « ومبالغة » في تأثيرهما على حركة المجتمع العربي ... فهل المطلوب منها « التهوين » من شان الاستعمار ؟ وهل وعينا بعمق خطر الاستعمار حتى يطلب منا عدم المبالغة في امره والتعقل في تقدير دوره ؟ انها لا تحاول ان تقوم بعملية « تجريد » وانما عملية « تجسيم » للحكومات التي ما زالت لم تدرك خطره ولحشد شعوب المنطقة للنضال ضده . ان الاتهام بانها تقوم بهذا « التجريد والمبالغة » للاستعمار يلتقي في النهاية بما يقوله المحللون « التجريد والمبالغة » للاستعمار يلتقي في النهاية بما يقوله المحللون عن الاستعمار والامبريالية العالمية ، ويتهمونها بانها مصابة بمرض « فوبيا الاستعمار » وانها تجرد المسالة وتتوهم دائما ان هناك « شيطانا وراء كل شيء » اسمه الاستعمار ، وقد كانوا منهمكين في تشخيص هذا المرض واجراء الدراسات اللغوية والنفسية التي تدلل على تفشي هذا المرض بين الشعوب التي تناضل من اجل التحرر !! وخطر هذه الفكرة وخطلها واضح في هذه المرحلة لانها تجعلنا نرخي من تشديدنا على التنديد « بالاستعمار » وبالتالي مقاومته ، واحرى بنا اذن ان ننصرف الى شؤوننا الداخلية وان نرفع مستوى المعيشة كما كانوا ينصحوننا في « انسانية واشفاق » ... لا تبالغوا وتجردوا حتى لا تصابوا بهذه الفوبيا وتجدوا هذا الكيان الذي جردتموه حتى استوى شيطانا تجدونه وراء كل خطأ وتأخر انتم مصابون به « ذاتيا » . ان حركة التحرر لا « تجرد » الاستعمار والا ما استطاعت ان تناضله لان الناس يناضلون شيئا واقعا يرون تأثيره باعينهم وتشهد عليه دماؤهم وارضهم . ولسنا في حاجة الى الحديث عن مواقف حركة التحرر من الاستعمار في المنطقة وكذلك مواقف الرجعية الصامتة عن الاشارة الى الاستعمار وقواعده في ارضها ... ان موقف حركة التحرر من الاستعمار ليس تجريدا ومبالغة صنعتها لانفسها .

والسؤال هو : أرأيت اذن مع من يلتقي هذا الكلام ومن يخدم ؟ انه يلتقي مع اليمين تماما ويخدمه ويدعم قواه .

ولست اعتقد ان المؤلف اراد هذا على الاطلاق او قصده او انتواه ، فهذا لم يخطر في بالي قط ، ولكن ما حيلتي وقد اوضح ذلك مجرد تحليلنا لنقده ؟ ان تحليل نقده هو الذي ادى الى هذا .

ومع هذا فانا احترم واقدر في المؤلف « رغبته » في النقد المسؤول وهدفه المخلص في كل ما كتبه .

* * *

هذا من الناحية العامة ، وكما اتضح لنا من مقدمة الكتاب ونقده اليساري الطفولي لحركة التحرر العربي وموقفها من الفكر الديني . وكان من المفروض ان تتصل مقدمة الكتاب بما يليها من فصول بحيث تطور فصول الكتاب اللاحقة الافكار التي طرحت في المقدمة وتبسطها وتشرحها وتدلل عليها . فالمؤلف مثلا تحدث في المقدمة عن ان الفكر الديني يلعب دور السلاح « النظري » عن طريق تزييف الواقع وتزوير الوعي بحقائقه وان عملية التزييف هذه تعمل في صالح مجموعة مصالح طبقية ضيقة ومسيطرة وتحدث عن انماط اربعة من التزييف ، ولكنه لم يدرس في الحقيقة الا نوعا واحدا منها هو ما سماه تزييف حقيقة العلاقة بين الدين والعلم الحديث . وكان على الكاتب اذا اراد فعلا نقد هذا النوع من الفكر ان يدرس هذه الانماط من التزييف التي ذكرها دراسة متانية ، والا ظل ما يقوله كلاما عاما غير مقنع ، وكان عليه ان يهتم اساسا بدراسة عملية التزييف هذه وتوضيح ارتباطها بالاستغلال الاجتماعي والسياسي . ولكن المؤلف لم يلتزم شيئا من ذلك في كتابه ، ولا بأس عليه فيما عمل ، فليكتب في مقدمته ما شاء وليتناول في فصول كتابه ما يشاء ايضا . ولعل السبب في ذلك ان الكتاب عبارة عن جملة دراسات سبق للمؤلف ان نشرها كلها ، او الجزء الاكبر منها ، في المجلات العربية في بيروت مثل مجلة « الثقافة العربية » ، ومجلة « حوار » وملحق « النهار » ، ومجلة « دراسات عربية » . وليس في الكتاب اذن شيء لم يسبق نشره ـ فيما يبدو ـ غير المقدمة والفصل الاخير الذي عنوانه « مدخل الى التصور العلمي ـ المادي لكون وتطوره » ، واما الفصول الاربعة الاخرى فهي عن « الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني » ، و « ماساة ابليس » ، و « معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان » ، و « التزييف في الفكر المسيحي الغربي المعاصر » . ودراسته عن ماساة ابليس التي سبق ان قرأناها في « حوار » دراسة طريفة حقا ولعلها ان تكون امتع ما في الكتاب ، فهو قد اراد دراسة هذه الشخصية باعتبارها شخصية ميثولوجية ابدعتها « ملكة الانسان الخرافية » وطورتها وضخمتها بخيال خصب . ووجه الطرافة في هذه الدراسة ان « التفكير الميثولوجي دوما قوة

حضارية خلاقة يغرف منها الفكر الديني والتامل الميتافيزيقي والتعبير الفني باستمرار » . اما دراسته عن « معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان » (ص ١٥١ ـ ١٧٩) التي سبق ان نشرت في مجلة « دراسات عربية » عدد يوليو ١٩٦٨ ، فقد اتسمت بالمبالغة والتصوير المهول لهذه الظاهرة التي اخذت صورة نوبة مفاجئة سرعان ما بدأت تضمحل وتنتهي وتعود الى حجمها الحقيقي من حيث اهتمام فئات معينة بها فقط ، وكان على الكاتب ان يراجع ما كتبه عند نشره كتابه حتى لا يحمل الامور اكثر مما تحتمل . واما دراسته عن التزييف في الفكر المسيحي الغربي المعاصر فهي نقد للندوة التي عقدت في الجامعة الامريكية في بيروت حول موضوع « الله والانسان في الفكر المسيحي المعاصر » .

* * *

وصلب دراسته من حيث موضوع نقد الفكر الديني فهو الفصل الاول من الكتاب عن « الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني » . ولن نناقش اهم ما جاء به ولكن نحب ان نذكر نقدا عاما وهاما ـ ومع هذا فلن نقف عنده كثيرا ـ وهو ان المؤلف لا يراعي في كثير من احكامه او تعبيراته الدقة العلمية التي كان ينبغي ان يلتزم بها . مثل قوله « ملكة الانسان الخرافية » بل وأيضا « ملكاته الخرافية » (ص ٨٣) . فليس التفكير الخرافي او الاسطوري « ملكة » من ملكات الانسان ، وكذلك ليس التفكير العلمي « ملكة » من ملكاته ، والاهم من هذا وذاك ان تعبير « الملكات » نفسه ، هذا التعبير الارسطي الذي ظل مسيطرا على المعرفة النفسية في العصور الوسطى ، تعبير خاطيء ، وقد رفضه علم النفس الحديث ولم يعد يقول به أحد من المشتغلين بعلم النفس على الاطلاق . ويقول المؤلف ايضا (ص ١٩) « علما بأن جيمس لا يعبر عن رأيه الشخصي فقط ، وانما يعكس بذلك مزاج حضارة القرن العشرين وثقافته » . ولو دقق الكاتب قليلا لعرف ان الفيلسوف الامريكي البرجماتي الشهير وليم جيمس لا يمكن ان نقول عنه انه يعكس مرة واحدة ووحده فقط دونا عن الآخرين « مزاج القرن العشرين وثقافته »» فقد يكون في الحقيقة يعكس جانبا من هذا المزاج او بالاحرى يعكس مزاج الرأسمالية «الامريكية » النامية والانتهازية والمستبشرة بالمستقبل. والذي يقول هذا الكلام عن وليم جيمس كيف تأتي له ان يختم كتابه بعبارة سارتر ان « الماركسية هي الفلسفة المعاصرة !!

ومع هذا فسنضرب صفحا عن كثير من مثل هذه التعبيرات والاحكام الجزئية الخاطئة وغير الدقيقة في الكتاب والتي تتناقض مع بعضها احيانا ومع ما يدعو اليه الكاتب بشكل عام في احيان اخرى ، وان كان من واجبنا الا نغفر للمؤلف الفاضل مثل هذه الاخطاء لانه من المشتغلين بالفلسفة ولانه يحاول ان ينقد الاخرين بصرامة ظاهرة .

* * *

ودون ان نقوم بمراجعة لكل ما ورد بهذه الدراسات وتلخيص افكارها الرئيسية ثم نقدها وتحليل هذا النقد لنتكشف دلالته ومضمونه لان ذلك لن يزيدنا الا تأكدا مما ذكرناه في النقطة الاولى واتسام هذا النقد في معظمه بطابع اليسارية الطفولية ... دون ان نستفيض في هذا ، نلاحظ ان المؤلف لم يستوعب الفكر الذي قرر انه يتبناه ويأخذ به ، ولذا فان نقده انبثق من ارضية مثالية مغطاة بواجهة ماركسية ، وهذا واضح في الموازاة التي اجراها بين نقد انجلز للمادية الميكانيكية ونقد الفيلسوف الانجليزي هوايتهد لها وفي غير هذه النقطة ايضا . ولو قارنا بين ما حاول ان يفعله المؤلف وبين المفكر التقدمي شبلي شميل في اول القرن الذي نادى بالفكر العلمي المادي وقام بنفس عملية النقد التي حاولها الكاتب لوجدنا ان شبلي شميل اكثر تقدما ووعيا بدوره من صاحب نقد الفكر الديني . وفي ضوء هذا الاتجاه من تراثنا الحديث في العشرينات والثلاثينات ينبغي فهم وتقييم ما فعله المؤلف .

واخيرا فان هذه الكلمة ليست نقضا للنقد ولكنها محاولة تصويب له .

القاهرة — عبد الجليل حسن

صدر حديثا :

تحديث العقل العربي

للدكتور حسن صعب

دراسة علمية عن الثورة الحديثة الشاملة ، والتغييرات المنهجية اللازمة لتحقيق التقدم العربي ، ودعوة لاعطاء الاولوية لتحديث العقل العربي وتحويله من صناعة الكلمات الى صناعة الاشياء .

المعجم الذهبي

فارسي ـ عربي

اضخم قاموس فارسي ـ عربي ظهر حتى الان ، تأليف الدكتور محمد التونجي

المورد

قاموس انكليزي ـ عربي

طبعة ثالثة تشتمل على اضافات كثيرة ولوحات ملونة

تأليف الاستاذ منير البعلبكي

الناجحون

مجموعة كتب للفتيان والفتيات ، تعرض حياة نخبة من ابطال العالم في الشرق والغرب ، في الحرب والسلم ، رجالا ونساء ، قديما وحديثا .

ظهر منها حتى الان : زنوبيا ـ خالد بن الوليد ـ نابليون بونابرت ـ بتهوفن ـ طارق بن زياد ـ هنيبعل ـ مدام كوري ـ كولومبوس ـ عبد الرحمن الداخل .

دار العلم للملايين

بيروت